من ذكرياتى مع الأدباء

توفيق الحكيم

سبق أن حثنى ناشر نشيط على كتابة ذكرياتى فيما لم أنشره فى كتابى «زهرة العمر» و«سجن العمر»، وأغرانى بما حسبه عندى من المغريات، ولكن لم يجد لدى تحمسا.. فأراد أن يسهل على الأمر، فاقترح أن يمدنى بجهاز تسجيل، وما على الا أن أضعه أمامى وأتكلم.. فلما تصورت نفسى على هذه الصورة قلت لابد أن أكون قد جننت لأجلس هكذا وحدى أتكلم أمام صندوق كهذا!.. لا. لا يمكن. فالذكريات ترد على ذهنى بالمناسبة. وعلى أساس الشىء بالشىء يذكر. فذهنى بحيرة راكدة. لابد أن يلقى فيها حجر لتنداح موجات من الذكريات. والحجر متى يلقى؟.. ومن يلقيه؟.. لست أدرى.. ربما الظروف.. وربما جليس أنيس.. ولقد لاحظ قارىء فطن أن مقالاتى الأخيرة تحوى نتفا من ذكريات قديمة عن حوادث وأشخاص. فتمنى لو استمر هذا، وتمنيت أنا أيضا لأحقق به رغبة طلاب الذكريات. دون أن أتكلف الجلوس إلى صندوق تسجيل. ولا بأس من تخير ما يجعل منها صورا خفيفة على النفس. ونفسى أنا اليوم على الأخص..

ومادام الشىء بالشىء يذكر. فقد نحت باقة ورد فخطرت لى أوراق الورد. فجرت الذاكرة إلى الأديب الشاعر مصطفى صادق الرافعى..

ومعرفتى بالمرحوم «مصطفى صادق الرافعى» نشأت فى حجرتى بوزارة المعارف يوم كنت فى الثلاثينات مديرا لإدارة التحقيقات بها.. وكان لهذه الإدارة اتصال مباشر بجميع فروع الوزارة وموظفيها. وكانت صلتى وثيقة بالمرحوم محمد بك العشماوى وكيل الوزارة لأنه قانونى من اساتذة كلية الحقوق، وأنا مثله من رجال القضاء. فكان رجال التعليم يرون فينا نحن الاثنين عنصرا دخيلا على وزارتهم، مما جعلنا نخف من غربتنا بينهم بالتساند. وقد نفع هذا التساند فى مساعدة من قصدنى من ادباء ذلك العصر.. وجاءنى بالفعل صادق الرافعى ومعه شاب تخرج حديثا فى كلية دار العلوم يرغب فى تعيينه مدرسا للغة العربية فى مدارس الوزارة. فكلمت فى ذلك مراقب التعليم الابتدائى المرحوم الحسينى بك مصطفى. فقال لى إن الوزارة لا تعين المتخرج حديثا، وإن عليه أن يلتحق فى أول الأمر بمدرسة أهلية تحت رعاية الوزارة، ثم ينقل إليها بعد ذلك. وهو يتعهد لى بهذا الأمر. فقبل الشاب.

وكان هو المرحوم «محمد سعيد العريان».. ثم جاءنى الرافعى يخبرنى أن له ابنا تخرج طبيبا فى جامعات الخارج. ويود تعيينه ضمن أطباء مدارس الوزارة. فوجدت المسألة صعبة. لأن كبير الأطباء سبق أن شكا لى من متاعبه مع أطبائه لأنهم جميعا متخرجون فى الجلترا فى حين أنه هو الوحيد المتخرج فى فرنسا. وعزم على عدم تعيين أحد من الخارج. فنصحه بأن يعين المتخرج فى فرنسا ليتألف فريق متجانس معه.. فقال: «ومن اين أجد فى الطب المتخرج فى فرنسا؟.. الجميع فى الطب يتخرجون فى الجلترا».. فسألت الرافعى عن ابنه قائلا فى يأس: «طبعا هو متخرج فى الجلترا» فإذا به يقول: «لا أبدا.. بل فى فرنسا».. فصحت فى الحال: «المسألة حلت».. وقد حلت بالفعل وصار الرافعى يزورنى. وكان الحديث معه عسيرا. لأن الصمم عنده كان كاملا. فكنا نستخدم الكتابة. إلى أن علمت أن المرحوم عبد الرحمن صدقى وكان موظفا بإدارة الامتحانات يستطيع أن يحادث الرافعى مباشرة بدون كتابة. والرافعى يفهم كلامه بمجرد النظر إلى حركة شفتيه. فكنت كلما حضر الرافعى أطلب مترجمه صدقى. حتى ضج رئيسه مدير الامتحانات الدمرداش بك وكان رجلا حازما شديدا. فاضطررنا إلى نقله من عنده إلى إدارة الفنون الجميلة. وقد لبث بها حتى عين وكيلا لدار الأوبرا.. وكان صدقى اديبا وشاعرا رقيقا فكان الحديث بينهما ممتعا. واستطاع عبد الرحمن صدقى بلباقته أن «يدحلب» الرافعى إلى الكلام عن الحب ورسائل الورد. فإذا به يطب ويعترف بأنه غارق فى الحب. واخرج من جيبه صورة فتوغرافية لامرأة جعل يصفها لنا قبل أن يطلعنا عليها.. بأنها الوردة التى تكفى نضارتها ويكفى اريجها لنشر الربيع الدائم فى صحراء العمر.. واشتقنا إلى خطف الصورة من يده ليصيبنا من هذا الربيع ولو قطرة أو نفحة أو نسمة. وهو يدل علينا بدلال من فى يده مفاتيح الجنة. وأخيرا تناولنا من يده عبد الرحمن صدقى. ونظر فيها وضحك ضحكة خبيثة فهمت معناها. وما ان انصرف الرافعى حتى قال صدقى إن المرأة التى فى الصورة لا تدخل مطلقا فى باب باقة الورد، ولكنها تدخل فى باب اكياس القطن!.. وأخذنا نتحدث فى أذواق المحبين. وفى أن الحب هو الذى يجمل الأشخاص والأشياء. ولقد جاء فيما قرأنا من كتب قديمة.. أن مجنون ليلى بعد أن وصف ليلاه بالجمال الذى صار مضرب الأمثال، نبض بعض معاصريه إلى تحرى الأمر والنظر إلى ليلى فلم يجد فيها الجمال الموصوف. إنما رأى فتاة عادية. فتكلم فى ذلك فقالوا له: يجب أن تراها بعين المجنون وليس بعينك.. وكان زكى مبارك قد ألف كتابا يومئذ عن حبيبة له فى العراق يوم كان هناك عنوانه: «ليلى المريضة فى العراق» فلم يخطر فى بال أحد ممن نعرفه أن يراها ويصفها لنا.. فقد كانت مبالغات زكى مبارك لا تقل عن مبالغات المجنون فى وصف ليلاه.. وكان علينا أن نقرأه ونستمتع بكتابته دون أن نصدقه. وأذكر أنه فى ذلك الوقت كان مطرودا من الجامعة. وينسب ذلك إلى خصومته مع طه حسين. وقد حاولت مع من حاول أن نعيده إلى الجامعة، وكلمت بالفعل صديق وكيل الوزارة محمد بك العشماوى.. فلم يستطع. وقال إن زكى مبارك اغضب الجميع. ويظهر انه كانت له هذه الخاصية: ان يخاصم الجميع. وان لم يخاصم فهو يشاغب. ولكنه مع ذلك طريف ظريف..

وكان يقول إن طه حسين دكتور واحد . أما هو فدكاترة . لأنه حصل على أكثر من دكتوراه . وإنه إذا جاع أولاده بعد أن أقصى عن الجامعة بسبب طه حسين فإنه سيطعم أولاده من لحم طه حسين . . وخاصم أيضا أحمد أمين الأستاذ بكلية الآداب وعميدها فيما بعد . . بأن كتب فيه سلسلة مقالاته : « جناية أحمد أمين على الأدب العربى » ردا على مقالات أحمد أمين التى كان قد نشرها بعنوان « جناية الشعر الجاهلى على الشعر العربى » . . ويشبه زكى مبارك فى إبعاده عن الجامعة صديقا آخر . عرفته وصاحبته فى باريس أوائل العشرينات ، وهو الدكتور محمد صبرى الشهير بالسوربونى . .

فهو أيضا قد أغضب كل رجال الجامعة بقوله المتكرر إنه هو الوحيد الحاصل فى مصر على دكتوراه الدولة . بينما طه حسين ومنصور فهمى وبقية الدكاترة لم يحصلوا إلا على دكتوراه الجامعة ، وهى ليست فى مستوى دكتوراه الدولة الحاصل هو عليها . وكان من نتيجة ذلك أنه لم يظفر بكرسى التاريخ . مع أنه مؤرخ ممتاز . وعمل فى دار الكتب ولم يظفر كذلك بمنصب المدير ، وقد حاولت كذلك اقناع صديق محمد بك العشماوى بمساعدته فلم يتمكن . فقد كان صبرى السوربونى رحمه الله يتمتع رغم كفاءته بخشونة منفرة . وقد حكى لى مرة عن « بيرم التونسى » الذى كان منفيا وقتذاك فى باريس . . انه يجيد طهو الطعام إجادة تامة ، فدعاه إلى شقته وادخله المطبخ واحضر له لحما وخضرا ، وكلفه باعداد وليمة لجماعة من أصدقائه الفرنسيين . . فلما فرغ بيرم من الطهو وإعداد الوليمة على أحسن وجه ، قال له صبرى « متشكر » وصرفه دون أن يدعوه . . وكان بيرم يمنى نفسه بأكلة دسمة ، وهو الشريد الطريد المعدم الذى كان يعمل طول يومه بفرنكات معدودة فى حمل براميل البيرة ، خرج يسب ويلعن . . وفى الأعوام الأخيرة كان ينضم إلى ندوتنا صبرى السوربونى فى قهوة « بيترو » كل صيف فى الإسكندرية ، ويطلب طبقا من السمك يفصصه بيديه ، فإذا حضرت نهض يسلم بيديه اللتين شع بهما تفعيصا فى السمك . . ورائحته تزكم الأنف ، فإذا تباعدت شكا من أنى لم أرحب بوجوده . . وهذا غير صحيح . فنحن لا نرحب فقط بالسمك الذى يلطخ بديه ويمدهما ليسلم بهما علينا . . رحمة الله عليه . . فهو لم يظفر بحقه الكامل فى حياتنا الأدبية ، شأنه فى ذلك شأن زكى مبارك ، على الرغم من أن للاثنين قدما راسخة فى الأدب العربى ودراساته . . وكاد يلحق بهما عباس محمود العقاد لخشونته وكثرة خصومه ، لولا شخصيته الطاغية وشكيمته القوية ، فاستطاع أن ينتزع حقه الكامل من بين انياب الذئاب . . وكانت بيننا دائما مودة ومحبة ، لأنى عرفت أن طبعه الخشن ليس طبعا متأصلا ، انما هى طريقة دفاع ضد الذين يتعمدون التهوين من شأنه والتخفيض من قدره . انما هو فى داخله اللين والرحمة . فهو يبكى على كلب صغير فقده ، وامتنع عن الزواج لأنه لا يحتمل أن ينجب ولدا يراه ذات يوم مريضا . . وهو كريم لا يعرف البخل . . قبض ذات يوم عشرين جنيها مكافأة على عضوية لجنة أدبية كان من المحكمين فيها مع المازنى ومعى . وقبض كل منا ذات المكافأة . ولكن المازنى طلب من العقاد أن ينفق مكافأته فى وليمة يعدها لنا ، فلبى الطلب

د. زكى مبارك

فى الحال دون أن يناقش أو يساوم أو يسأل لماذا هو الذى ينفق مكافأته علينا ، ونحن لا نفكر فى مساهمة بقرش . وفى جيوب الزميلين الجنيهات العشرون لكل منا نائمة فى خير وسلام . . وضع العقاد على المائدة فى بيته ليس ديكا روميا واحدا ، بل ديكين ، والله ! . . كان ذلك فى أواخر الثلاثينات فيما أذكر . . وكان رحمه الله ذا رجولة وشهامة فى الدفاع عن أصدقائه . . كان يقول إذا سمع من يصفنى بأنى أحب المال وأغالى فى طلبه ، إنى أطلب المال بشروطى . وبقصد بالشروط الكتابة كما أشاء وقتما أشاء . ويقال إنه كان يبالغ فى الاعتداد بنفسه . ويشاع أن وزيرا من الوزراء أبلغه عن طريق مكتبه أنه يريد مقابلته فى الساعة كذا . . فلما جاءت الساعة جلس ينتظر فى صالون منزله زيارة الوزير . فلم يحضر الوزير بالطبع لأنه هو الآخر كان ينتظر العقاد فى مكتبه . . كما أشيع أنه ما كان ينتظر أحدا اكثر من دقيقة واحدة عن الموعد المحدد . فإذا لم يحضر انصرف عنه ولا يقبل اعتذارا مهما يكن شأن الشخص أو الموضوع الذى جاء من أجله .

ولست أظن ذلك كان يحدث مع أصدقائه الأعزاء ، فإنى أذكر أنه حدد لى موعدا فى قهوة « سولت » لمجرد حديث غير ذى بال . . فحضرت متأخرا ووجدته جالسا وحده إلى مائدة ينتظرنى . فلما اقبلت عليه استقبلنى ببشاشة وبادرنى بقوله « لو كنت حضرت قبل خمس دقائق لرأيت معى عجبا على المائدة المجاورة : كان عليها عاشقان يتحدثان حديثا مهما » . . قلت :

– مادام مهما فلابد أن يكون عن محاورات افلاطون ومطالعات فى الكتب . .

فضحك مقهقها وقال :

– بل عن جوارب السيدات !

وجعل يسرد على أشياء مهمة جدا فى المجتمع وقتذاك لا ندرى عنها شيئا نحن الأدباء ! . . لقد كنا فى زمن الحرب فى عام ١٩٤١ بالتقريب . وكانت جوارب السيدات نادرة . ويكفى أن يمزق جورب سيدة لتعتبر ذلك كارثة . وكانت أزمة الجوارب للمقبلين على الزواج فى أهمية أزمة السكن اليوم . . وكان يقال لنا بالفعل إذا عزمتم على الزواج فضعوا فى ميزانيتكم جوارب زوجاتكم . فكنا نجيب بقولنا : الحمد لله الذى وقانا من التفكير فى الزواج ! . .

وفى الزواج كان خبيرنا الذى يعرف شئون الزواج هو صديقنا المازنى . ولكن . الحرمة ، ويقصد بها دائما زوجته لا تفاتحه فى هذه الأمور فيما يظهر . . لقد كان شغله الشاغل فى ذلك الوقت سيارة اشتراها وبسوقها بنفسه . . ولابد أنها كانت « نصف عمر » أو شيئا كهذا ، فقد دعانى ذات مرة إلى ركوبها . وكان اليوم ممطرا ، فما ان سارت قليلا حتى توقفت . ونزل المازنى منها وأخذ فى الزق ، حتى عرق فقال لى :

– انزل وزق معى . . الله يسترك ! .

فسألته :

– ما هى ماركة هذه السيارة ؟

قال :

– كما ترى ماركة « اللى يحب النبى يزق » ! . .

قلت :

– صحيح . . ولو كنت أعرف هذا المصير فى اليوم المطير . . . ! . .

وأخذ يمسح وجهه من بلل المطر ويقول :

– حتى يصدق علينا المثل : « وزاد الطين بلة » ! . .

وجعلنا نزق معا هذه السيارة ، وكانت كبيرة الحجم ، والمازنى كما نعلم صغير الحجم ، فقلت له :

– ولماذا لا تكون سيارتك فى مثل حجمك ؟

فقال :

– الوجاهة ! . .

قلت :

– ولماذا السيارة على الإطلاق ؟ . .

قال :

– روح العصر ! . .

قلت وأنا أمسح عرق الذى سال غزيرا من الزق :

– روح العصر طلعت روحنا ! . .

ولم ينقذنا الا بعض المارة ، رأوا ورطتنا وسوء حالتنا فجاءوا يعاوننا فى الزق ، حتى تعبوا هم أيضا ، فقالوا :

– كان ضرورى تركبوا دى ؟ ! والموتورجل ماله ؟ ! .

فقلت لهم :

– روح العصر ! . . ودى المرة الأولى والأخيرة اركبها ! . .

ويظهر ان المازنى باعها بعد ذلك وتخلص منها ، لأنى لم أشهها معه بعد ذلك اليوم . .

ولكن المازنى مولع بالجديد ، فما لبث أن اشترى آلة كاتبة ، وتعلم الكتابة عليها ، وصار يكتب مقالاته بها . مثله مثل الكتاب الأمريكان ! . ، ولم أره منذ ذلك التاريخ ، إلى أن جاء عام ١٩٤٩ وكنت قد سافرت للتصييف فى باريس ، وكان هناك أيضا طه حسين ، فجاءنا الخبر المفجع أن المازنى قد توفى . ولم يكن قد جاوز الستين . فهزتنا المفاجأة ، وحزنا عليه حزنا شديدا . . رحمه الله رحمة واسعة . فقد كان خفيف الظل . وما من مرة قابلناه الا أشاع فينا المرح والبسمة وحب الحياة . .

□